بين معمم ومقبع ومطربش !!

الحر شديد تلفح زفراته الوجوه ، والترام مزدحم بالناس قعوداً ووقوفاً ، وما منهم إلا من ملأ الفتور بدنه كأنما أخذتهم جميعاً سنة فهم صامتون مطرقون . وليس ما يدب فيه النشاط والقوة إلا هذا الترام السريع الذى ينحدر إلى القاهرة من مصر الجديدة منطلقاً كالسهم ، يهز ركابه الوسنانين هزات قوية تنفض عنهم بعض فتورهم وتكاد تلقى بالجالسين منهم على أطراف المقاعد إلى أرض العربة فى منعرجات الطريق ...

وفى زاوية من العربة جلس ثلاثة : معمم على أحد المقاعد يواجهه على المقعد المقابل مقبع ومطربش .

أما المعمم فهو فى حدود الأربعين أنيق الثياب جداً ، نظيفها كأنما هو قادم بها من فوره من دكان الخياط . ولست أدرى ما ذا يصنع يوم العيد ليشعر الناس أنه « غيِّر » ملابسه ؛ ممتلىء البدن ، أبيض الوجه فى حمرة ، متورد الوجنتين ، تنبئك ملامح وجهه بأنه فكه خفيف الروح ، وتحدثك عيناه ولفتاته ونظراته فيمن حوله — على الرغم من الفتور الذى لحقه كما لحق غيره — أنه « ابن بلد » بأوسع معنى لهذه الكلمة .

أما المقبع فهو عُتُلٌّ فى نحو الستين ، ثقيل الظل جامد الطبع فيما يبدو من ملامحه وهيكله جميعاً ، وبخاصة حاجباه الكثيفان ومنخاراه الواسعان وعيناه الضيقتان وفمه الذى ما إن رأيته حتى جزمت بأنه لم يبتسم مرة فى سنواته الستين ، ولو طلب إلى أن أؤدى يميناً عن هذا لأديتها فى غير حرج .

أما المطربش فأرجو أن تعفينى من وصفه فذلك هو أنا صاحب المنظار . !

وحدث بين هؤلاء الثلاثة ما بعث الركاب جميعاً من سِنَتهم وما أضحكهم على الرغم من الحر والغبار وجهد اليوم ...

مد المقبع إحدى رجليه فوضعها على المقعد حتى مس حذاؤه ملابس المعمم أو كاد ، فنظر إليه هذا نظرة استنكار عله يسترد رجله ويبعد ذلك الحذاء الذى خيل إلى لكبره أنه مركب من مراكب الأطفال ؛ ولكنه لم يتحرك ؛ فقال له المعمم : « من فضلك يا خواجه » وأشار إلى حذائه ؛ فنظر إليه المقبع متثاقلا وقال : « لا ... أنا حر » ونطق الحاء خاء فازداد ثقلا على ثقل .

وازداد وجه المعمم حمرة ورأيته أخذ يتحمس ، ولكنها حماسة من يعرف كيف يسلك فى مثل هذا الموقف ما يشاكله من مسالك :

— أنت حر فى بيتك ولكن هنا لا ... ونطق المعمم كذلك الحاء خاء كأنما هو حيال نص لا يملك له تبديلا ...

ولم يلتفت المقبع إليه فازداد جموداً على جمود !

ولم يرع هذا المتل إلا رِجلا الشيخ جميعاً تمتدان فتستقران لا على المقعد ولكن فى حجره وقد ضغط الشيخ بنعليه على بطنه وهو يقول « أنا كان حر » وأصر على جعل الحاء خاء .

وضحكت حتى تندت عيناى وضحك من شهدوا المنظر جميعاً وطار عنهم فتورهم ؛ ونهض المقبع كأنما لدغته عقرب ، وهو يرطن بلغته ، وكأنما فمه بالوعة غصت بالماء وقد انتفخ شدقاه فازداد غلظاً على غلظ .

ونظر إلىّ المعمم وهو بين الضحك من فعلته وما أثارته من ضحك عام وما كلمت به من نحاح أعجبه ، وبين الغيظ مما يرطن به المقبع ، وقال لى « ترجم حرفياً ما يقول لأناق به تحت الترام » فأحجمت وما زدت على أن ضحكت . فقال الشيخ وقد حبس ابتسامته وبدا الجد فى وجهه : « أتمتنع عن ترجمة ما يقول هذا الخنزير ؟ . أهذه غيرتك على كرامة بنى وطنك ؟ » .

ورأيتنى على رغمى قد دخلت خصما ثالثاً فى القضية !

ونظرت إلى الشيخ وقلت : أفترانى يرحمك الله أتبين شيئاً مما يقول ؟ ومع ذلك فهل تظنه يمتدحك ويثنى عليك ؟

وأعجب الشيخ ردى فابتسم أو كاد ثم عاد إلى عبوسه وتقطيبه ، على أنه ما لبث أن ضحك مع من ضحكوا لهذا الرد .

ورأيت أنى أحرجت الشيخ إذ حرمته مما أراد أن يتسلل به من جهله بما يقول خصمه وكفى الله المؤمنين القتال ... وصار لزاماً أن يلقى بذلك المقبع تحت الترام وإلا فقد قبل شتائمه

وأنقذ المقبع من الموت المحتم تحت عجلات الترام أو قل أنقذ الشيخ من حرجه وقوف الترام على آخر محطة بحيث لم تعد عجلاته تفعل شيئاً !